الفاصلة في القرآن الكريم

للدكتور عبد الفتاح لاشين

الفاصلة في الآيات القرآنية تاتي مستقرة في أماكنها ، مطمئنة في مواضعها ، غير قلقة ولا تافرة ، يتعلق معناها بمعنى الآية كلها ، بحيث لو طرحت لاختل المعنى ، فهي في مكانها جزء من معنى الآية ، وقد يشتد تمكن الفاصلة في مكانها ، وبطلبها موضعها حتى ان السامع ليشعر بها قبل لفظها ، واليك أيها القارىء طرفا من الحديث عنها .

القرآن حين نزوله :

القرآن الكريم نزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بضع وعشرين سنة ، قضى منها عشرا في مكة ، والباقي في المدينة ، فكان من القرآن الكريم سور مكية ، وأكثرها قصار ، وعددها ست وثمانون ، وأخرى مدنية ، وعدتها ثمان وعشرون (١) .

والسور المكية نزلت في بدء الدعوة ، ولما كانت جماعة المشركين متعصبين لأديانهم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، وفي أخلاقهم جفوة ، وفي السنتهم خصومة ، اتجهت السور المكية في خطابهم الى الوجدان والمشاعر ، تقسو عليهم بالزجر والتسفيه ، والوعيد والتهديد ، والترغيب والترهيب ، والتبشير والانذار ، في أسلوب شديد الأسر ، حاد قوي ، متتابع السجعات الرنانة ، والفواصل المدوية القصيرة (٢) .

وليس معنى هذا أن القرآن المدني تخلو آياته من السجع ، لكن الغالب عليها الاسترسال ، والهدوء ، وطول النفس ، لأنها تخاطب عقول قوم آمنوا بها ، واطمأنوا الى هدايتها ، فهي مسوقة لتقرير العبادات ، وبيان الأحكام ، وسن القوانين ، وتنظيم المجتمع ، وتهذيب الطبائع والأخلاق ، فان لم تنته بالسجعات ، انتهت بفواصل متضاربة في حروف الروى ·

واكثر ما تكون الفواصل تماثلا في حروف الروى في الآيات المكية ، كما نرى ذلك في قوله تعالى : « والنجم اذا هوى ، ماضل صاحبكم وماغوى ، وماينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى » (النجم ١ ـ ٧) ·

وقد تكون الفواصل متقاربة ، كما في قوله تعالى : « حم ، والكتاب المبين ، انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمرا من عندنا انا كنا مرسلين ، رحمة ربك انه هو السميع العليم » (الدخان ١ ـ ٦) ·

فالميم والنون حرفان متقاربان في المخرج اللفظي ، واكثر ماتكون الفواصل تقاربا في الآيات المدنية ·

فالنقر في الآيات السابقة رقيقة النغم ، خفيفة الروح ، موجزة اللفظ ، وافية المعنى فيها وزن ، ورنين ·

وقد جاء القرآن الكريم بأسهل موقف ، وأعذب مقطع ، وكثر فيه ختم كلمة المقطع من الفاصلة ، بحروف المد واللين والحاق النون ، فيمكن القارىء الذواق من التطريب ، وهذا يتفق مع ما كان يميل اليه العرب قديما ، قال سيبويه (٣) : « ان العرب اذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون لأنهم أرادوا مد الصوت ، ويتركون ذلك اذا لم يترنموا » ·

والسور التي جاءت فواصلها كلها على حرف واحد ليست قليلة :

فمن ذلك سورة الكهف ، والفتح ، والانسان ، والأعلى ، والشمس ، والليل ، فان فواصلها كلها جاءت على حرف الألف ·

ومن ذلك سور : القمر ، والقدر ، والكوثر ، فان فواصلها كلها جاءت على حرف الراء ·

وأما سورة الاسراء ، والفرقان ، والأحزاب ، فان فواصلها كلها ، وان جاءت على الألف ، فان كل واحدة منها قد جاءت فيها فاصلة على غير الألف ، وهي الراء في (الاسراء) وذلك في قوله تعالى : « انه هو السميع البصير » ، واللام في (الفرقان ١٧) في قوله تعالى : « أم هم ضلوا السبيل » ، واللام في (الأحزاب ٤) في قوله تعالى « والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » ·

ومن ذلك سورة المنافقين ، فان فواصلها كلها جاءت على حرف النون ، كذلك سورة الفيل فان فواصلها كلها جاءت على حرف اللام ، وكذلك سورة الناس ، فان فواصلها كلها جاءت على حرف السين ·

وقد كثر مجيء الفواصل على بعض الأحرف كالنون ، وقل مجيئها على بعض الأحرف كالشين » ·

وقد يكون القرآن خاليا من المقاطع في بعض الآيات ، لكنه لا ينزل في وزنه ونغمه عن مستواه الأعلى ، ومن ذلك كثير من آيات الأحكام ، مثل آية المواريث :

« يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ، فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك ، وان كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك » ·· الآية (١١ ، ١٢ من النساء) فهاتان الآيتان مع أنهما يعدان من الآيات الطوال اذ يبلغ حجمها في المصحف أكثر من اثنى عشر سطرا ، ومع ذلك فليس فيهما الا مقطعين لا يعدان فواصل متقاربة ولا متماثلة ، وانما هو كلام الله المنثور ، فالنغم متآخ والمعاني متلاقية ، والألفاظ متجانسة ، مع بيان واضح للأحكام ، وتفصيل كامل للتشريع ، وعلى الرغم من ذلك ، فلم ينزل بمرتبة الكلام كثرة ذكر الأرقام ، بل بقي على صفة العلو ، وظل في الطبقة العليا من الكلام ، مع في الآية من أرقام الحساب ، والكسور التي تدعو الى الجفاء في العبارة ·

الفاصلة والسجع :

تقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب ، لتحسين الكلام بها ، وهي الطريقة التي يباين بها القرآن سائر الكلام ، وأسميت فواصلا ، لأنه ينفصل عندها الكلامان ، حيث ان آخر الآية فصل بينها وبين مابعدها ، ولعل هذا أخذ من قوله تعالى : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (هود ١) .

ولا يجوز تسميتها قوافي اجماعا من العلماء ، لأن الله تعالى لما سلب عنه اسم الشعر ، وجب سلب القافية عنه أيضا لأنها منه ، وكما يمتنع استعمال القافية فيه ، يمتنع استعمال الفاصلة في الشعر ، اذ أنها صفة لكتاب الله تعالى لا تتعداه .

والفاصلة تكون مقاطع الكلام فيها متقاربة في الحروف كالنون والميم في قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين » (الفاتحة ٢ ـ ٤) .

أما السجع : فتكون مقاطع الكلام فيه متحدة في الحروف .

وعلى هذا فالفواصل أعم من السجع ، فهي اما سجع تتحد فيه حروف المقاطع ، أو مجرد فواصل تتقارب فيها حروف المقاطع ، وهذا هو ما اتجه اليه ابن سنان الخفاجي ، حيث يقول (٤) :

« الفواصل على ضربين : ضرب يكون سجعا ، وهو ماتماثلت حروفه في المقاطع ، وضرب لا يكون سجعا وهو ما تقاربت حروفه في المقاطع ولم تتماثل » .

ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين ـ أعني المتماثل والمتقارب ـ من أن يأتي طوعا سهلا وتابعا للمعاني ، وبالضد من ذلك ، حتى يكون متكلفا يتبعه المعنى ، فان كان من القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان ، وان كان من الثاني فهو مذموم مرفوض » .

فابن سنان يرى ـ كما يدل عليه النص ـ أنه ليس كل فاصلة تكون الألفاظ فيها تابعة للمعنى ، فيكون الحسن واقعا ، وليس كل سجع تكون المعاني فيه تابعة للألفاظ فيكون التكلف حاصلا ، بل التعميم في الحسن في الفاصلة ، والقبح في السجع ، هو الخطأ ـ الا أن فواصل القرآن كلها من البليغ ، وألفاظه تبعا لمعانيه .

ثم أورد ابن سنان شواهد من الفواصل المتماثلة والمتقاربة في القرآن ، فقال : فمن المتماثلة قوله تعالى : « والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور ، والبيت المعمور » (الطور ١ ــ ٤) ، وقوله تعالى : « طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى ، الرحمن على العرش استوى » (طه ١ ــ ٥) ·

ويستمر في ضرب الشواهد من القرآن ، ثم يقول معقبا عليها :

« وهذا جائز أن يسمى سجعا ، لأن فيه معنى السجع ، ولا مانع من الشرع يمنع من ذلك » ·

ثم يستشهد على المتقارب بقوله تعالى « ق ، والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون هذا شيء عجيب » (ق ١ ــ ٢) ، وهذا لا يسمى سجعا ، لأن السجع ماكانت حروفه متماثلة ·

فالمقاطع ليست متحدة في الحروف ، بل بينهما تقارب في المخرج ، ف [الدال والباء] مخارجها متقاربة ، ولا نفرة بينهما في النطق ، وكذلك حرف المد قبل الحرف الأخير من كل مقطع ، وهو [الياء والواو] (٥) ، ولهذا كان التقارب بينا ، يجعل نسق القول واحدا ، وان لم تتحد المقاطع ، وهذا مما جعل كلام الله تعالى فوق كل مثال » ·

في القرآن سجع أم فواصل ؟

المسلم به أن القرآن الكريم فيه فواصل ، قد تتحد فيها حروف المقاطع كما في قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر ، وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ، ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغني النذر ·· » وجميع هذه السورة على هذا الازدواج ، فهل يسمى هذا ، وأمثاله كثير في القرآن ــ سجعا ؟ ·

اختلاف وجهة نظر العلماء :

اختلفت آراء علماء البلاغة في القديم ، فيما جاء في كتاب الله تعالى من الفواصل ، هل يسمى ذلك سجعا ؟ ·

رأي الرماني :

رأى الرماني ، أن الفواصل : حروف متشاكلة في المقاطع ، توجب حسن الافهام في المعاني ، ووصف الفواصل بالبلاغة ، والأسجاع بالعيب ، وعلل ذلك بقوله (٦) :

« ان الفواصل تابعة للمعاني ، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها ، وهو قلب ماتوجبه الحكمة في الدلالة اذ الغرض انما هو الابانة عن المعاني التي اليها الحاجة ماسة ، فاذا كانت المشاكلة موصلة اليه فهو بلاغة ، واذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولكنه ، لأنه تكلف من غير الوجه الذي توجبه الحكمة ، ومثله مثل من رصع تاجا ثم ألبسه زنجيا ساقطا ، ونظم قلادة ثم ألبسها كلبا ، وقبح ذلك وعيبه بين لمن له أدنى فهم » .

ثم يمثل للسجع بقول الكهان ، فيقول :

« فمن ذلك ما يحكي عن بعض الكهان : « والأرض والسماء ، والغراب الواقعة بنقعاء ، لقد هر المجد الى العشراء » .

وهكذا نجد الرماني يفرق بين الفاصلة والسجع في الجواز ، فالفاصلة بلاغة ، والسجع عيب ، والفواصل : ألفاظها تتبع المعاني ، والسجع : اتحدت حروفه دون نظر الى المعنى ، والقرآن في نظره يعلو أن يكون سجعا .

ولعل الحكمة في نظرته تلك الى السجع أن ذلك كان مبنيا على أساس ما أمامه سجع الكهان ، ومافيه من الغرابة والقبح الذي لا يقبل جدالا — والا فمن السجع مما يزيد المعنى قوة ، وتكون ألفاظه تابعة لمعانيه ، ويسهل قبوله ، ويجيء عاملا من عوامل التأكيد .

رأي الباقلاني :

وافق الباقلاني الرماني في انكار السجع في القرآن الكريم ، ووصف ما ادعاه الآخرون بوجوده في القرآن ، وما ساقوه من أدلة بأنها وهم ، فقال (٧) :

« والذين يقدرون بأنه سجع هو وهم ، لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع ، وان لم يكن سجعا ، لأن ما يكون به الكلام سجعا يختص ببعض

الوجوه دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن ، لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى » ·

فالباقلاني ، ومن تبعه من الأشاعرة ، لا يذكرون لاسجع الا من خلال هذه الصورة القاتمة من صور البيان ، وهي أن يكون اللفظ فيها مقدما على المعنى ·

والذي دفع الباقلاني الى هذا هو تشبيه السجع بالشعر ، فالشعر تقصد فيه القوافي المتحدة في الألفاظ ، ثم يكيف المعنى على الألفاظ لتستقيم القافية ، ولما كان الشعر منفيا عن القرآن ، فكذلك السجع الذي يتبع منهجه ، وتجيء المعاني فيه تابعة للألفاظ ، وأن الله تعالى عندما استنكر أن يكون القرآن قول شاعر ، أو كاهن في قوله تعالى « انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون ، ولابقول كاهن قليلا ماتذكرون » (الحاقة ٤٠ـ٤٢) ، فقد أدخل السجع في النفي ، وهو السجع الذي يكون المقصد الأول فيه اللفظ ·

أبو هلال العسكري :

لكننا نجد اتجاها آخر من العلماء ، يثبت السجع في القرآن ، وان كان السجع في القرآن أعلى مما يستطيع البشر أن يزاولوه ·

ومن هؤلاء أبو هلال العسكري ، فقد قال : (٨)

« وجميع ما في القرآن مما يجرى من التسجيع والازدواج متحالف في تمكين المعنى ، وصفاء اللفظ ، وتضمن الحلاوة ، لما يجري مجراه من كلام الخلق ، ألا ترى قوله تعالى : « والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا » (العاديات ١ ـ ٥٠) قد بان عن جميع أقسامهم الجارية هذا المجرى من مثل قول الكاهن : « والسماء والأرض ، والقرض والفرض ، والغمر والبرض » ؟ ، ومثل هذا من السجع المذموم ، لما فيه من التكلف والتعسف ·

ولهذا قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لرجل قال : « أندى من لاشرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، فمثل ذلك ذمه يطل » أسجعا كسجع الكهان ؟ ، لأن التكلف في سجعهم فاش ، ولو كرهه ـ عليه السلام ـ لكونه سجعا لقال : أسجعا ؟ ، ثم سكت ·

وكيف يذمه ، ويكرهه ، واذا سلم من التكلف ، وبرىء من التعسف ، لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه ، وقد جرى عليه كثير من كلامه ـ عليه السلام ـ ؟ » ·

فأبو هلال يخالف الرماني والباقلاني في أن السجع كله مذموم ، بل ان منه المذموم الذي يظهر فيه التكلف ، ومنه ما هو حسن الموقع ، ولا مانع من أن يقع في القرآن ، ولكنه في أعلى مراتب الكلام ، بحيث لا يمكن أن يجاريه أو يدانيه أحد ·

ابن سنان :

وابن سنان يسمى ما في القرآن من المقاطع المتماثلة سجعا ، الا انه من السمو والعلو بحيث لا يستطيع أحد من البشر أن يسمو سموه ، ويسوق نصوصا من القرآن كثيرة منها : « طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » (طه ١ ـ ٦) ·

ويتكلم ابن سنان عن البواعث التي دفعت المنكرين وجود السجع في القرآن ، فيحمد لهم تلك البواعث ، مع الثبات على مخالفتهم ، فيقول : (٩)

« واظن أن الذي دعا أصحابنا الى تسمية كل ما في القرآن فواصلا ، ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعا ، رغبة في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة ، وغيرهم ، وهذا غرض في التسمية قريب ·

فأما الحقيقة فما ذكرناه ، لأنه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره في كونه مسجوعا وبين مشاركة جميعه في كونه عرضا ، وصوتا ، وحروفا ، وكلاما ، وعربيا ، ومؤلفا ، وهذا مما لا يخفى فيحتاج الى زيادة في البيان ، ولا فرق بين الفواصل التي تتماثل حروفها في المقاطع وبين السجع » ·

ثم يقول ردا على معترض :

فاذا قال قائل : اذا كان عندكم أن السجع محمود ، فهلا ورد القرآن كله مسجوعا ، وما الوجه في ورود بعضه مسجوعا وبعضه غير مسجوع ؟ ·

قيل : ان القرآن أنزل بلغة العرب ، وعلى عرفهم وعادتهم ، وكان الفصيح في كلامهم لا يكون كله مسجوعا ، لما في ذلك من أمارات التكلف ، والاستكراه والتصنع ، لا سيما فيما يطول من الكلام ، فلم يرد مسجوعا جريا به على عرفهم في الطبقة العالية من كلامهم ، ولم يخل من السجع ، لأنه يحسن في بعض الكلام على الصفة التي قدمناها ، وعليها ورد في فصيح كلامهم ، فلم يجز أن يكون عاليا في الفصاحة وقد أخل فيه بشرط من شروطها ، فهذا هو السبب في ورود القرآن مسجوعا وغير مسجوع » .

فتصريف القول في القرآن ، فيأتي بالسجع أحيانا ، أو بالفواصل المتقاربة حروفها في المقاطع أحيانا ، أو اطلاق الألفاظ في القرآن من غير مقاطع ، مع وجود ذلك كله في أعلى درجات البلاغة ــ كان لحكمة سامية ، وسر لطيف ــ وهو التصريف في القول ــ يقول تعالى : « ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل » (الاسراء ٨٩) .

رأي ابن الأثير :

استنكر ابن الأثير قول من يذمون السجع ، كما استنكر القول من العلماء الذي لا يسمون ما في القرآن من اتحاد المقاطع سجعا ، يقول : (١٠)

« وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ، ولا أرى لذلك وجها ، فلو كان مذموما لما ورد في القرآن الكريم ، فانه قد أتى منه بالكثير ، حتى انه ليؤتى بالسورة كلها مسجوعة ، كسورة الرحمن ، وسورة القمر ، وغيرهما » .

فالمثبتون للسجع في القرآن ــ أبو هلال ، ابن سنان ، ابن الأثير ــ يعتمدون على مايجدونه فيه من اتحاد في المقاطع ، ومع ذلك فهو في القرآن أعلى من كلام البشر ، وليس على شاكلته كلام آخر .

وعلى ضوء ماتقدم نرى أن هناك خلافا بين الرماني ، والباقلاني ، ومن تبعهم من جهة ، وبين أبي هلال ، وابن سنان ، وابن الأثير ، ومن تبعهم في وجهة نظرهم من جهة أخرى ، فهؤلاء يقولون في السجع : انه اتحدت فيه الفاظ المقاطع ، سواء أكان المعنى هو المقصود ، وجاء الاتحاد تحسينا للقول ، أم كان المقصد هو اللفظ واتحاد الفاظ المقاطع هو المقصود ، وفي الأول يكون السجع محمودا ، وفي الثاني لا يكون لائقا بالقرآن الكريم .

أما الرماني والباقلاني ، وبقية الأشاعرة ، فانهم لا يرون السجع الا في هذه الصورة القاتمة من صور البيان التي فيها يكون اللفظ مقدما على المعنى ·

فاذن هذا الاختلاف قائم على الاختلاف في الاصطلاح على تسمية السجع ، فمن يفسره بأنه الاتحاد في حروف المقاطع من غير أن يكون المعنى تابعا للفظ يحكم بأن القرآن الكريم فيه سجع ، لكنه فوق قدرة البشر ، ومن يقول : بأن السجع كالشعر يكون المعنى فيه تابعا لأوزان القافية يكون القرآن منزها عنه ·

وبذلك يكون الطرفان على اتفاق تام على تقديس القرآن ، وتنزيهه عن أن يكون مشابها لكلام البشر ، وان كان من جنسه وحروفه ·

الفواصل تبنى على الوقف :

الفواصل موضوعة على أن تكون ساكنة الاعجاز ، موقوفا عليها ، لأن الغرض أن يزاوج بينها ، ولا يتم ذلك في كل صورة الا بالوقف والبناء على السكون ، لقولهم : « ما أبعد مافات ، وماأقرب ما هو آت » ، فلو اعتبرت الحركة لفات السجع ، لأن التاء من [فات] مفتوحة ، ومن [آتٍ] مكسورة منونة ، وهذا غير جائز في عرف القوافي ، ولا يتحقق فيه التزاوج بين الفواصل (١١) ·

ولهذا شاع مقابلة المرفوع بالمجرور ، وبالعكس ، وكذا المفتوح والمنصوب غير المنون ومنه قوله تعالى : « انا خلقناكم من طين لازب » ــ بجر [لازب] ، مع تقدم قوله : « ولهم عذاب واصب » و « شهاب ثاقب » ــ برفع [واصب وثاقب] ، والآيات على ترتيب المصحف هكذا :

« انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظا من كل شيطان مارد ، لا يسمعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ، دحورا ولهم عذاب واصب ، الا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ، فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا انا خلقناهم من طين لازب » (الصافات ــ ٦) ·

وكذلك قوله تعالى في قصة نوح ــ عليه السلام ــ : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر » (القمر ١١ ، ١٢) بجر [منهمر] وبناء [قدر] على الفتح ·

وكذلك قوله تعالى : « واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال ، هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا ، وينشيء السحاب الثقال » (الرعد ١١ ، ١٢) — بجر [وال] ، ونصب [الثقال] ·

ويقول صاحب البرهان : « وكلام السكاكي (١٢) يشعر بأنه يشترط في السجع الموافقة في الاعراب لما قبله على تقدير عدم الوقوف عليه ، كما يشترط ذلك في الشعر » ·

ثم يضعف ماذهب اليه السكاكي ، فيقول :

« والصواب أن ذلك ليس بشرط ، لما سبق ، ولا شك أن كلمة [الأسجاع] موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز ، موقوفا عليها ، لأن الغرض المجانسة بين القرائن والمزاوجة ولا يتم الا بالوقف ، ولو وصلت لم يكن بد من اجراء كل القرائن على ما يقتضيه حكم الاعراب ، فعطلت عمل الساجع ، وفوت عرضهم ·

واذا رأيتهم يخرجون الكلمة عن أوضاعها لغرض الازدواج ، فيقولون : آتيك بالغدايا والعشايا ، مع أن فيه ارتكابا لما يخالف اللغة ، فما ظنك بهم في ذلك » ؟ (١٣) ·

تقسيم الفواصل :

قسم البلاغيون (١٤) الفواصل الى : متواز ، ومطرف ، ومتوازن ·

فالمتوازي : — وهو أشرفها — أن تتفق الكلمتان في الوزن وحرف الروى ، كقوله تعالى في نعيم أهل الجنة : « فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة » (الغاشية ١٣ ، ١٤) ، وقوله تعالى في المسيح — عليه السلام — « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، ورسولا الى بني اسرائيل » (آل عمران ٤٨ ، ٤٩) ·

والمطرف : أن تتفق الكلمتان في حرف الروى — لا في الوزن ، كقوله تعالى حكاية عن نوح — عليه السلام — يخاطب قومه : « مالكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا » (نوح ١٢ ، ١٣) ·

والمتوازن : أن يراعى في مقاطع الكلام الوزن فقط ، كقوله تعالى في نعيم أهل الجنة : « ونمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة » (الغاشية ١٥ ، ١٦) ، وقوله تعالى يخاطب الرسول عليه السلام : « فاصبر صبرا جميلا ، انهم يرونه

بعيدا ، ونراه قريبا ، يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن » (المعارج ٥ ــ ٩) وقوله تعالى في قصة موسى وهارون : « وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم » الصافات ١١٧ ، ١١٨) فلفظ [الكتاب] و [الصراط] متوازنان ، ولفظ [المستبين ، والمستقيم] متوازنان .

وقد تكرر المتوازن في سورة (الشورى ١٦ ــ ٢٢) في سبع آيات متواصلة في قوله تعالى : « والذين يحاجون في الله من بعدما استجيب له ، حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ... ، فجميع فواصلها بين [شديد ، قريب ، بعيد ، عزيز ، نصيب ، اليم ، كبير] على هذا الترتيب ، وهو في القرآن كثير ، وبخاصة في قصار المفصل .

وأحسن السجع ماتساوت قرائنه ليكون شبيها بالشعر ، فان أبياته متساوية ، كقوله تعالى في نعيم أصحاب اليمين : « في سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود » (الواقعة ٢٨ ــ ٣٠) .

ثم ماطالت قرينته الثانية ، كقوله تعالى : « والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وماغوى » ، (النجم ١ ، ٢) ، أو الثالثة ، كقوله تعالى : « خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » (الحاقة ٣٠ ــ ٣٢) .

وقد علل العلماء عدم حسن طول القرينة الثانية عن الأولى بتعليل نفسي ، فزاوجوا به بين علم النفس والبلاغة ، يقول صاحب عروس الأفراح (١٥) :

« ان السمع ألف الانتهاء الى غاية في نهاية السجعة الأولى ، فاذا زيد عليها ، ثقل عليها الزائد ، لأنه يكون عند وصولها الى مقدار الأولى ، كمن يتوقع الظفر بمقصوده من فهم المراد له ، ولم يجده أمامه » .

وقال آخر : « واضح أن العقل يقدر القوة اللازمة لادراك المقاطع ، فاذا زاد المتكلم أو نقص ، أو غير في مقطع عن مالوف هيئته ، تعثرت به أذن السامع ، وشق عليها ذلك ، كمن يسير في سهل مستو على غير انتباه ، فان أقل خلل في الطريق من ارتفاع أو انخفاض ، أو اعتراض حجر ــ بخلاف ما هو مقرر في ذهنه ــ يوجب عثاره وتأذيه » .

وقال ثالث : « دقات الساعة المتوالية ، حين تبدأ أو تتكرر يعيها السامع ، ولما كان تكرار الدقات يتبع نظاما معينا ، فان السامع يتوقع أن تتكرر الدقات بذلك النظام نفسه في المستقبل وقد يكون هذا التوقع أو الانتظار شعوريا ، وقد يحتل شبه الشعور .

دليل ذلك أنه اذا توقفت الساعة عن العمل كان توقفها سببا في لفت نظرك اليها ، والبحث عن أسباب توقفها ، ومعنى ذلك أن حدوث الأشياء بنظام مخالف لما نتوقع يحدث في أنفسنا شيئا من الدهشة والاضطراب ، وهذا هو عينه التعليل النفساني لما يحدث من ارتياح عند الاستماع الى الموسيقا الصوتية المنسجة ، أو الى الشعر الموزون ، والى النثر المسجوع ، أو الخاضع لنظام معين في توالي الكلمات ، وسرد العبارات » .

والفاصلة اما أن تكون قصيرة كقوله تعالى : « والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا » (المرسلات ١ ، ٢) . أو طويلة ، كقوله تعالى في غزوة بدر : « اذ يريكم الله في منامك قليلا ، ولو أراكم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ، ولكن الله سلم ، انه عليم بذات الصدور ، واذ يريكموهم اذ التقيتم في أعينكم قليلا ، ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا ، والى الله ترجع الأمور » (الأنفال ٤٣ ، ٤٤) .

أو متوسطة ، كقوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر ، وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » (القمر ١ ، ٢) .

خروج نظم الآية عن المألوف بسبب الفاصلة :

الفاصلة لها أثر في نسق الكلام ، واعتدال المقاطع ، يجعل موقعه حسنا في النفوس ، وتؤثر فيه تأثيرا لا ينكر ، وتناسب الأطراف ، وتماثل الحروف ، مما يريح السامع ، ويجذب انتباهه .

ولهذا الأثر الفعال الذي تتركه الفاصلة في النفوس ، قد يعدل نظم الكلام في القرآن وتخرج الآية عن المعتاد والمألوف بسببها ، ومن هذا التعديل:

١ ـ زيادة حرف [الألف ، وهاء السكت ، ولعل] لأجل الفاصلة (١٧) :

فزيادة الألف كقوله تعالى في وصف حال المسلمين في غزوة الأحزاب :

« اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، واذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » (الأحزاب ١٠ ، ١١) ٠

فقد الحقت [الألف] ب [الظنون] ، لأن مقاطع فواصل هذه السورة ألفات منقلبة عن تنوين في الوقف ، فزيدت على النون ألف ، لتتساوى المقاطع ، وتتناسب نهايات الفواصل ٠

ومثله من السورة نفسها قوله تعالى في عقاب الكفار : « يوم تقلب وجوههم في النار يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا : ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » (الأحزاب ٦٦ ، ٦٧) ٠

وزيادة هاء السكت الملحقة بياء المتكلم ، مثل : [ماهيه] في قوله تعالى في وصف جهنم : « وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وماأدراك ماهيه ، نار حامية » (القارعة ٩ ــ ١١) ٠

ومثلها الهاء الملحقة بياء المتكلم في [كتابيه وحسابيه] في قوله تعالى : « فأما من أوتي كتابه بيمينه ، فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه ، اني ظننت أني ملاق حسابيه ، فهو في عيشة راضية » (الحاقة ١٩ ــ ٢١) ٠

فهذه [الهاء] التي زيدت في [ماهيه] في آية القارعة ، وفي [كتابيه ، وحسابيه] في آيات الحاقة ، عدلت مقاطع الفواصل في سورتي القارعة والحاقة ، وكان للحاقها تأثير عظيم في الفصاحة ، ووقع لطيف على مجرى السمع ٠

وقد غاب وجه هذا الحسن ، وروعة هذه الهاء ، على بعض العلماء ، فعابوها ، والعيب فيهم :

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته

والذنب للطرف ، لا للنجم في الصغر

« أنشد رجل من أهل المدينة أبا عمرو بن العلاء قول عبد الله بن قيس الرقيات :

ان الحوادث بالمدينة قد

أوجعتني ، وقرعت مروتيه

فانتهر أبو عمرو ، وقال : مالنا ولهذا الشعر الرخو ، ان هذه الهاء لم توجد في شيء من الكلام الا أرخته ·

فقال له المديني : قاتلك الله ! ، ما أجهلك بكلام العرب ، قال الله عز وجل : « ماأغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه » (الحاقة ٢٨ ، ٢٩) ، وقال : « ياليتني لم أوت كتابيه ، ولم أدر ماحسابيه » (الحاقة ٢٥ ، ٢٦) ، فانكسر أبو عمرو انكسارا شديدا ·

وأنشد عبد الله بن قيس الرقيات هذا الشعر لعبد الملك بن مروان ، فقال : أحسنت يابن قيس ، لولا أنك خنثت قافيته ، فقال : ياأمير المؤمنين ، ماعدوت قول الله عز وجل في كتابه : « ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه » ، فقال عبد الملك ، « أنت في هذا أشعر منك في شعرك » (١٨) ·

وأما زيادة [لعل] فكقوله تعالى : « يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، لعلي أرجع الى الناس لعلهم يعلمون » (يوسف ٤٦) ، فقد كرر [لعل] مراعاة لفواصل الآيات ، اذ لو جاء على الأصل لقال : [لعلي أرجع الى الناس فيعلموا] بحذف [النون] على الجواب ·

٢ ـ تانيث ما أصله أن يذكر للفاصلة (١٩) :

هذا معنى يكاد يكون واحدا ، الا أن التعبير القرآني سلك فيه مسلكا فريدا مراعاة لتحسين المقاطع ، ومحافظة على وجود الفاصلة ، يقول تعالى في وصف المشركين حين فرارهم من الدعوة : « كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة ، بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة ، كلا ، بل لايخافون الآخرة ، كلا انها تذكرة ، فمن شاء ذكره ، ومايذكرون الا أن يشاء الله ، هو أهل التقوى وأهل المغفرة » (المدثر ٥٠ ـ ٥٦) ·

ويقول في سورة الانسان : « ان هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا ، وماتشاءون الا أن يشاء الله ، ان الله كان عليما حكيما » (الانسان ٢٩ ، ٣٠) ·

فلماذا اختلفت الفاصلة في هاتين السورتين « ان هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا » ، وقوله : « كلا انها تذكرة ، فمن شاء ذكره » مع أن معناهما واحد ؟ ·

ولماذا كانت [الهاء] في [ذكره] ، وهي مذكر ، وتعود على مؤنث ، وهي [تذكرة] « اختلفت الفواصل في هذين الموضعين لملاءمة الفواصل في كل من السورتين ، فلما كانت فواصل بعض الآيات في سورة المدثر [هاء] كما في [مستنفرة ، قسورة ، منشرة ، تذكره ، ذكره] ، عادت [الهاء] في [ذكره] وهو ضمير مذكر الى مؤنث ــ وهي التذكرة ــ اذ هو بمعناها فكلاهما مصدر ، [نقول : ذكرت تذكيرا وتذكرة ، مثل ، قدمت تقديما وتقدمه] ، فكان هذا التعديل في نهاية الكلمة لتتعادل الفواصل .

وأما « فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا » ، وان كان بمعنى « فمن شاء ذكره » لكنه عدل الى قوله : « اتخذ الى ربه سبيلا » للتوفيق بين الفواصل في هذه السورة ، اذ كانت مرادفة بباء أو راء ، ومنقطعة بالألف ، فحصل بالمكانين اتفاق المعنيين ، مع ملاءمة الفواصل في الموضعين » .

فالتعبير المألوف الذي يجب أن يكون عليه في الآية الأولى [كلا انه تذكير ، فمن شاء ذكره] ، أي من شاء انتفع فيكون ذاكرا له ، واذا لم ينتفع به فيكون كالناسي له ، واذا جاء على هذه الصورة عاد الضمير في [ذكره] على العائد المذكر [تذكير] على المألوف والمعتاد .

لكن التعبير القرآني آثر أن يؤنث ما أصله أن يذكر ، وأن يبدل [تذكرة] بـ [تذكير] ، وهما بمعنى واحد ، تعديلا للمقاطع ، وتناسبا من أجل الفواصل .

كذلك [فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا] هي بمعنى [فمن شاء ذكره] وكانت في مكان بفاصلة ، وفي آخر بفاصلة ، تبعا للفاصلة الموجودة في كلا السورتين ، ومراعاة للتناسب في كلا الموضعين .

٣ ــ الجمع بين المجرورات (٢٠) :

وذلك كقوله تعالى خطابا للمشركين : « أم امنتم ان يعيدكم فيه تارة اخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا » (الاسراء ٦٩) .

فقد توالت المجرورات بالأحرف الثلاثة وهي : اللام في [لكم] ، والباء في [به] ، وعلى في [علينا] ، وكان الأحسن الفصل بينها ، لكن التعبير القرآني فضل ترك الفصل بين تلك الروابط ، لأن فواصل السورة كلها

منصوبة منونة ، فلم يكن بد من تأخير من كلمة [تبيعا] لتكون هذه الآية مناسبة لنهايات ماقبلها ومابعدها حتى تتناسق السورة كلها على صورة واحدة ، وايقاع واحد .

٤ ـ حذف همزة أو حرف (٢١) :

أما حذف الهمزة ، فكقوله تعالى : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ، وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا » (مريم ٧٣ ، ٧٤) .

فقد قرئت (رئيا) على خمسة أوجه :

(أ) رئيا ـ وهو المنظر والهيئة ، فعل بمعنى مفعول من (رأيت) .

(ب) ريئا ـ على القلب ، كقولهم [راء] في [رأي] .

(د) ريا ـ من الري ـ وهو النعمة ، من قولهم : [ريان من النعيم] .

(هـ) ريا ـ على حذف الهمزة رأسا » (٢٢) .

فهذه القراءات الثلاث الأخيرة ، قرئت على هذا الوضع لتتوافق المقاطع ، وتتناسب الفواصل .

كما حذف الحرف الأخير من [يسر] في قوله تعالى : « والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل اذا يسر ، هل في ذلك قسم لذي حجر » (الفجر ١ ـ ٥) ـ فقد حذفت [الياء] من [يسري] ، وهي أصلية لرعاية الفاصلة .

ويحكى عن الأخفش أن المؤرج السدوسي (٢٣) سأله عن حذف الياء من [يسر] ، فقال : لا أجيبك حتى تنام على بابي ليلة ، ففعل ، فقال له : ان عادة العرب اذا عدلت بالشيء عن معناه نقصت حروفه ، والليل لما كان لا يسري ، وانما يسري فيه نقص منه حرف ، كما في قوله تعالى : « وكانت أمك بغيا » (مريم ٢٨) ، والأصل : (بغية) فلما حول ونقل عن فاعل نقص منه حرف » .

كما حذفت ياء المتكلم من [يهدين ، ويسقين ، يشفين ، يحيين] من قوله تعالى : « قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فانهم عدولى الا رب العالمين ، الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني

ويسقين ، واذا مرضت فهو يشفين ، والذي يميتني ثم يحيين » (الشعراء ٧٥ – ٨١) .

٥ – تأخير ما أصله أن يقدم :

وذلك كقوله تعالى : « فأوجس في نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف انك أنت الأعلى » (طه ٦٧ ، ٦٨) – وأصل الكلام : فأوجس موسى في نفسه خيفة ، وقدم المفعول على الفاعل ، وفصل بين الفعل والفاعل بالمفعول ، بحرف الجر ومجروره ، قصد التحسين النظم ، رعاية الفاصلة .

وقد أنكر ابن الأثير (٢٤) راي الزمخشري (٢٥) من أن تقديم المفعول يفيد الاختصاص في مثل قوله تعالى في وصف أصحاب الجحيم : « خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » (الحاقة ٣٠ ، ٣١) ، فقال : « تقديم المفعول « الجحيم » على الفعل « صلوه » لم يكن للاختصاص ، وانما للفضيلة السجعية ، ولا مراء في أن هذا النظم على هذه الصورة أحسن مما لو قيل : خذوه ، فغلوه ، ثم صلوه الجحيم .

ثم يفند زعم الزمخشري ، فيقول : « فان قيل » انما قدمت [الجحيم] للاختصاص ، لأنها نار عظيمة ، ولو أخرت لجاز وقوع الفعل على غيرها ، كما يقال : ضربت زيدا ، وزيدا ضربت .

فالجواب : أن الدرك الأسفل أعظم من الجحيم ، فكان ينبغي أن يخص بالذكر دون الجحيم ، على ماذهب اليه ، لأنه أعظم .

ثم يقسو عليه في العبارة ، ويشتد في التعنيف ، فيقول :

وهذا لا يذهب اليه الا من هو بنجوة عن رموز الفصاحة والبلاغة . وهكذا يقال في « سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » فان لم يقدم (السلسلة) على (السلك) للاختصاص ، وانما قدمت لمكان نظم الكلام ، ولا شك أن هذا أحسن من أن لو قيل : ثم اسلكوه في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا .

٦ – افراد ما أصله أن يجمع :

وذلك لقوله تعالى : وكل شيء فعلوه في الزبر ، وكل صغير وكبير مستطر ، ان المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر »

(القمر ٥٢ ــ ٥٥) ــ والأصل [أنهار] وانما وحد لأنه رأس آية ، فقابل بالتوحيد رؤوس الآيات ــ قال هذا الفراء .

وكقوله تعالى يعاتب المشركين لاتباعهم الشيطان : « أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلا ، ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولاخلق أنفسهم وماكنت متخذ المضلين عضدا » (الكهف ٥٠ ، ٥١) .

قال ابن سيدة في المحكم (٢٦) ــ أي أعضادا ، وانما أفرد ليعدل رؤوس الآيات بالافراد .

٧ ــ جمع ما اصله ان يفرد : (٢٧)

وذلك كقوله تعالى : « وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله ، قل تمتعوا فان مصيركم الى النار ، قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ، وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن ياتي يوم لابيع فيه ولا خلال ، (ابراهيم) ٣٠ ، ٣١) ، فان المراد ــ ولا خلة ــ بدليل الآية الثانية : « يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل ان ياتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة » (البقرة ٤ و ٢) ، فجمعت في الآية الأولى لأجل مناسبة رؤوس الآيات .

٨ ــ تثنية ما اصله أن يفرد : (٢٨)

وذلك كقوله تعالى : « ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، ذواتا أفنان » (الرحمن ٤٦ ــ ٤٨) .

قال الفراء : المراد بـ [الجنتان] في الآية تلك ، جنة (٢٩) واحدة ، كقولة تعالى : « فان الجنة هي المأوى » (النازعات ٤١) ، فثنى لأجل الفاصلة ، والقوافي تحتمل من الزيادة والنقصان ما لا يحتمله بقية الكلام .

ونظير ذلك قوله تعالى في قصة ثمود : « اذ انبعث أشقاها » (الشمس ١٢) فانهما رجلان : قدار وآخر معه ، ولم يقل أشقياها للفاصلة .

ثم ان الفراء قال : (٣٠) « وهذا باب مذهب العرب في تثنية البقعة الواحدة ، وجمعها ، واستشهد بقول زهير :

ديار لها بالرقمتين كانها

مراجيع وشم في نواشر معصم (٣١)

فـ [الرقمتان] مكانان ، والمراد مكان واحد ، وثنى على عادة العرب في ذلك ·

وقول الشريف المرتضي :

فقولا لأهل المكتين تعاشدوا
وسيروا الى آكام يثرب والنخل (٣٢)

فـ [المكتان] مكة والمدينة ـ على التغليب ، والمراد مكة فقط ، وثنيت على عادة العرب في ذلك ·

ثم ان الشاعر يشير بذلك اللفظ الى نواحيها ، أو للاشعار بأن لها وجهين ، وأنك اذا وصلتها ونظرت اليها يمينا وشمالا ، رأيت في كلتا الناحيتين ما يملأ عينك قوة ، وصدرك مسرة ·

فالآيتان الكريمتان ثنيت فيهما [جنتان ، وأشقاها] لأجل الفاصلة ، رعاية للتي قبلها ، والتي بعدها ، اذ هي على هذا الوزن ، والقوافي تحتمل في الزيادة والنقصان مالا يحتمله بقية الكلام ·

لكن رأي الفراء هذا يثير ثائرة ابن قتيبة ، فيقول مشددا حملته عليه (٣٣) : « وهذا من أعجب ما حمل عليه كتاب الله ، ونحن نعوذ بالله من أن نتعسف هذا التعسف ، أو نجيز على الله الزيادة والنقصان في الكلام لرأس آية ، وانما يجوز في رؤوس الآي أن نزيد [هاء] للسكت ، كقوله : « وما أدراك ماهيه » ، أو [ألفا] كقوله : « وتظنون بالله الظنونا » ، أو تحذف همزة من الحرف كقوله : « أثاثا ورئيا » ، أو [ياء] كقوله : « اذا يسر » لتستوى رؤوس الآي على مذهب العرب في الكلام ، لأن هذا لا يزيل معنى عن جهته ، ولا يزيد ولا ينقص ·

فأما أن يكون وعد جنتين فيجعلهما جنة واحدة من أجل رؤوس الآي ، فمعاذ الله ، وكيف يكون هذا ، وهو تبارك يصفها بصفة الاثنين ، فقال تعالى : « ذواتا أفنان » ، ثم قال : [فيهما] ·

ولو أن قائلا قال في خزنة النار : انهم عشرون ، وانما جعلهم تسعة عشر ، وانما جعلهم تسعة عشر لرأس الآية ، كما قال الشاعر :

● نحن بنو أم البنين الأربعة ●

وانما هم خمسة ، فجعلهم للقافية أربعة ، ما كان هذا القول الا كقول الفراء » .

٩ ـ اختلاف الترتيب :

يحكي تعالى قصص الأولين للعبرة والعظة ، فيقول :

« كذبت قبلهم قوم نوح ، وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة ، أولئك الأحزاب ، ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب » (ص ١٢ ـ ١٤) .

ويقول : « كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثموت ، وعاد وفرعون واخوان لوط ، وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، كل كذب الرسل فحق وعيد » [ق ١٢ ـ ١٤] .

فما السبب في اختلاف الترتيب في هاتين الأيتين ؟ ولماذا ختمت الآية الأولى في سورة ص بـ [فحق عقاب] ، والثانية في سورة ق [فحق وعيد] ، والمعنى في السورتين يكاد يكون واحدا ؟ .

السبب في ذلك : أن سورة (ق) مبنية فواصلها على أن يردف آخر حرف منها بالياء أو بالواو ، وعلى ذلك جاءت جميع أياتها [ثمود ، لوط ، وعيد]

وسورة (ص) بنيت فواصلها على أن تردف أواخرها بالألف ، ولذلك كانت فواصل هذه السورة كلها من الآية الثانية الى الآية السادسة والستين ، أواخرها تردف بألف ، مثل.[شقاق ، مناص ، عجاب] ، فجاءت هذه الآيات بين هذه الفواصل ، على الفاصلة ذاتها [ذو الأوتاد ، الأحزاب ، عقاب] ـ ولهذا اختلفت الآيات في فواصلها في سورتي [ص ، ق] ، فكل فاصلة كانت متفقة مع فاصلة سورتها .

وأما اختلاف الترتيب فواضح ففي أيات (٣٤) (ص) ذكر ستة أقوام ، وفي آيات (ق) ذكرت ثمانية ، فهم ستة مكررة في كلتا الأيتين ، ولم يقع أحد منهم في ترتيب الآخر سوى (قوم نوح) ، فقد كان في صدر الأيتين .

واسلبب في اختلاف هذا الترتيب هو الحفاظ على فاصلة كل آية مع فواصل سورتها ، ولم يعمل بقانون الترتيب في الآيات مراعاة لفواصل كل سورة .

ويقول تعالى حكاية عن سحرة فرعون : « وألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون » (الأعراف ١٢٠ ـ ١٢٢) .

وفي مكان آخر يقول : « فالقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون » (الشعراء ٤٦ ـ ٤٨) .

وفي مكان ثالث : « قلنا لا تخف انك أنت الأعلى ... حيث أتى ، فالقى السحرة سجدا ، قالوا : آمنا برب هارون وموسى » (طه ٦٨ ـ ٧٠) .

فلماذا اختلفت الفواصل في الآيات الكريمة فجاء في موضع : « برب هارون وموسى » وفي آخر « رب موسى وهارون » ؟ .

السبب في ذلك أن الفواصل في سورة (الأعراف) بنيت على [الياء والنون] أو [الواو والنون] وكذلك سورة (الشعراء) ، ولهذا قدم [موسى] فيهما حتى تكون الفاصلة [هارون] بالواو والنون كالآيات قبلها ، فيتم التناسق بين الفواصل ، ويتحد الايقاع .

أما في سورة (طه) فالفاصلة بنيت على الألف في هذه الآيات ، ولهذا قدم [هارون] ، وأخر [موسى] حتى تتسق الفواصل ، وتتجانس أواخر الآيات .

ولما كان القصد حكاية المعنى في سورة (طه) لا أداء اللفظ على جهته ـ كما سبق في سورتي الأعراف والشعراء ـ حذف منها [رب العالمين] استغناء عنها بما دل عليها من قبل .

وقد نقل صاحب الاتقان أن الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفي الف كتابا سماه [احكام الراى في أحكام الآى] ، وقال فيه :

« اعلم أن المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية يرتكب لها أمور من مخالفة الأصول ، وقد تتبعت الأحكام التي وقعت في آخر الآي مراعاة للمناسبة ، فعثرت منها على ماينيف عن الأربعين حكما » .

وقد أوجزها السيوطي في صفحتين ، ثم ختمها بقول ابن الصائغ :

« قال ابن الصائغ : لا يمتنع في توجيه الخروج عن الأصل في الآيات المذكورة أمور أخرى مع وجه المناسبة ، فان القرآن العظيم ـ كما جاء في الأثر ـ لا تنقضي عجائبه » .

الفاصلة ليست مجرد توافق ألفاظ :

من الباحثين من ينظر الى الفاصلة ـ أو السجع ـ في الكلام عامة على أنه مناسبة لفظية مرغوبة ، ومطلوبة في اللغة العربية ، فهي تريح القارىء من البهر ، وترشده الى تلوين الصورة ، واجادة الوقف ، وتزيد من روعة التلاوة ، بما تخلع عليها من ايقاع محبب ، وتمد القارىء بألوان من التنغيم المؤثر والتطريب الأخاذ .

وهذا ان صدق في سجع الكتاب ، فلا يصدق اطلاقا على الفاصلة في القرآن الكريم ، فعلينا ألا ننظر الى بلاغة الفاصلة في القرآن هذه النظرة المحدودة التي لا تكاد تتجاوز الألفاظ والصيغ ، فان هذه الصورة اللفظية الحسية مع جمالها لا يصح أن تصرفنا ، ولا تحجب عن ذهننا ما استتر فيها من بدائع الأسرار ، ودقائق الأغراض .

فالفاصلة في القرآن الكريم لها مزية هامة ترتبط بما قبلها من الكلام بحيث تنحدر على الأسماع انحدارا ، وكأن ما سبقها لم يكن الا تمهيدا لها ، وبحيث اذا حذفت لاختل المعنى في الآية ، ولو سكت عنها القارىء ، لاستطاع السامع أن يختمه بها انسياقا مع الطبع ، والذوق السليم (٣٦) .

فليست فواصل القرآن مجرد توافق ألفاظ وأوزان ، بل لها علاقة وثيقة بما قبلها من نص في الآية ، وقد أبرز ذلك العلماء لدى تعريفهم للفاصلة .

فقال الرماني : (٣٧) الفواصل ، حروف متشاكلة في المقاطع ، توجب حسن افهام المعاني ، وقال الباقلاني : (٣٨) الفواصل ، حروف متشاكلة في المقاطع ، يقع بها افهام المعاني .

ونحن نحس عندما نسمع القرآن الكريم أو نتلوه أن لهذه الفواصل نغمات نفسية ومعنوية ، وايقاعا يعطي الانسان روحا ، ويحس عندها بمتعة فنية مؤثرة ، تثبت في الفؤاد الطمأنينة والارتياح .

ولعل الفاصلة مأخوذة من قول الله تعالى : « كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » (فصلت ٣) ، وبها يتم المعنى ، ويزداد وضوحا وجلاء ، ومكانتها من الآية مكان القافية من البيت .

المراجع

١ ـ اعجاز القرآن : للباقلاني تحقيق سيد صقر ـ القاهرة دار المعارف ١٩٧٢م القاهرة .

٢ ـ الاتقان في علوم القرآن : للسيوطي ـ النسخة القديمة ط التجارية القاهرة ـ ١٣١٨هـ .

٣ ـ الأمالي : للشريف المرتضى ـ بيروت د.ت .

٤ ـ البرهان في علوم القرآن : للزركشي ـ تحقيق محمد أبو الفضل القاهرة ١٩٥٧م .

٥ ـ البديع في أساليب القرآن : د. عبد الفتاح لاشين ـ ط ـ دار المعارف القاهرة ١٩٧٣م .

٦ ـ الخصائص : لابن جنى ـ تحقيق الشيخ النجار ـ القاهرة ١٩٥٢م د.ت .

٧ ـ درة التنزيل وثمرة التأويل : للخطيب الاسكافي ـ ط بيروت والقاهرة ١٩٠٩م .

٨ ـ سر الفصاحة : لابن سنان الخفاجي تحقيق الشيخ عبد المتعال القاهرة د.ت .

٩ ـ شرح القصائد السبع ، والتسع : للأنباري ، ابن النحاس ، بغداد ١٩٧٣م .

١٠ ـ الصناعتين : لأبي هلال العسكري ط استانبول د.ت .

١١ ـ عروس الأفراح : للبهاء السبكي ـ ضمن شروح التلخيص ـ القاهرة د.ت .

١٢ ـ القرطبي : لابن مطرف الكناني ط ـ الخانجي ـ القاهرة د.ت .

١٣ ـ الكتاب : لسيبويه ـ القاهرة ـ د.ت .

١٤ ـ الكشاف : للزمخشري ـ القاهرة د.ت ١٩٧٣م .

١٥ ـ المثل السائر : لابن الأثير ـ تحقيق د. بدوي طبانة والحوفي ـ القاهرة .

١٦ ـ المزهر : للسيوطي ـ القاهرة د.ت .

١٧ ـ مفتاح العلوم : للسكاكي ـ القاهرة د.ت .

١٨ ـ معترك الأقران : للسيوطي تحقيق البجاوي ـ القاهرة ١٣٩٢هـ .

١٩ ـ المحكم : لابن سيدة ـ القاهرة د.ت .

٢٠ ـ النكت في اعجاز القرآن : للرماني ـ ضمن ثلاث رسائل في الاعجاز ـ القاهرة دار المعارف .

الهـــوامش

١ ـ حصر السور المكية والمدنية فيها خلاف ، وهذا القول هو أحدها .
٢ ـ البديع في ضوء أساليب القرآن ١٢٤ .
٣ ـ الكتاب جـ٢/٢٩٨ .
٤ ـ سر الفصاحة ١٦٥ ومابعدها .
٥ ـ كما في الفاصلة « ومالها من فروج » (ق ٦) .
٦ ـ النكت في اعجاز القرآن للرماني ٩٧ .
٧ ـ اعجاز القرآن للباقلاني ٥٨ .
٨ ـ الصناعتين ٢٦٦ .
٩ ـ سر الفصاحة ١٦٦ .
١٠ ـ المثل السائر جـ ٣٣٣/١ ومابعدها .
١١ ـ البديع في ضوء أساليب القرآن ١٤٢ .
١٢ ـ المفتاح ٢٠٣ ، قال السكاكي : « ومن جهآت الحسن الأسجاع ، وهي في النثر كما في القوافي في الشعر » .
١٣ ـ البرهان جـ١/٧١ ، (الغدو) جمع مثل : الغدوات والغدي ، وقالوا : اني لآتيك بالغدايا والعشايا ، والغداة لا تجمع على الغدايا ، ولكنهم كسروه على ذلك ليطابقوا بين لفظه ولفظ العشايا ، فاذا أفردوه لم يكسروه ، (اللسان مادة غدا) .
١٤ ـ البرهان جـ١/٧٥ .
١٥ ـ عروس الأفراح جـ٤/٤٤٩ .
١٦ ـ الأستاذ/ حامد عبد القادر .
١٧ ـ البرهان جـ١/٦١ .
١٨ ـ الخصائص جـ٣/٢٩٣ ، المزهر جـ٢/٢٣٣ .
١٩ ـ انظر في هذا البرهان جـ١/٦٥ ، درة التنزيل ٥٠٧ .
٢٠ ـ البرهان جـ١/٦٢ .
٢١ ـ البرهان جـ١/٦٢ .
٢٢ ـ الكشاف جـ٢/٧٥ .
٢٣ ـ البرهان جـ٣/١٠٧ .
٢٤ ـ المثل السائر جـ١/٢١٩ .
٢٥ ـ الكشاف ١٥٣/٣ .
٢٦ ـ المحكم جـ ٢٤١/١ .
٢٧ ـ البرهان جـ١/٦٣ ، ٦٤ .
٢٨ ـ نفسه ٦٤ .
٢٩ ـ الاتقان جـ٣/٢٩٩ ـ تحقيق : أبو الفضل .
٣٠ ـ القرطبي جـ٢/١٤٩ .

٣١ ـ الرقمتان : مكانان أحدهما قرب المدينة ، والآخر قرب البصرة ، الوشم : أن يثقب ظاهر الذراع بابرة ثم يحشى بالكحل ليخضر ، فقد شبه آثار الديار بالوشم الذي أعيد وكرر ، النواشر : عروق ظاهر الذراع ـ وقيل : الظاهر والباطن (شرح القصائد السبع للانباري ٢٢٨) ـ لكن الفراء يقول : انها واحدة ثم تنبت على عادة العرب في ذلك •

٣٢ ـ أراد بـ [المكتين] مكة والمدينة ، فغلب (أمالي المرتضى جـ٢/١٤٨) ، لكن الفراء يرى أنها مكة واحدة ثم ثنيت على عادة العرب •

٣٣ ـ القرطبي جـ٢/١٥٠ ، الاتقان جـ٢/١٠٠ •

٣٤ ـ ففي سورة (ص) : قوم نوح ، وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة » •
وفي سورة (ق) : قوم نوح ، وأصحاب الرس ، وثمود ، وعاد وفرعون ، واخوان لوط ، وأصحاب الأيكة ، وقوم تبع » •

٣٥ ـ الاتقان جـ٢/٩٩ ، ١٠٠ ، المعترك جـ١/٢٣ ، ٣٧ •

٣٦ ـ البديع في ضوء أساليب القرآن ١٤٣ •

٣٧ ـ النكت في اعجاز القرآن ٨٩ •

٣٨ ـ اعجاز القرآن ٢٧٠ •